مجلة أبوليوس
المجلد 08 العدد 01 – جانفي 2021
الصفحات: 194- 210

التأصيل لثقافتي الحوار والتأويل: قراءة في نماذج من مدوّنة بسام قطوس النقدية

Rooting for Dialogue and Interpretation's Cultures: Examples from the Critical Studies of Bassam Quttous

د.إبراهيم حسن علي بني عطا *

وزارة الثقافة/ الأردن

ibaniata@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021/01/08 تاريخ القبول: 2021/01/27 تاريخ النشر: 2021/01/31

ملخص البحث:

تنتظم المدونة النقدية للناقد والأكاديمي بسام قطوس، حتى تاريخه، من ثلاثة عشر كتاباً نقدياً، وأكثر من ثلاثين بحثاً منشوراً في مجلات علميّة محكّمة، فضلاً عن عشرات البحوث المشاركة في مؤتمرات نقدية محلية وعربية وإقليمية. وينطلق هذا المشروع النقدي الذي استغرق أكثر من ثلاثة عقود، من رؤية نقدية تجمع بين التأصيل النقدي والإجراء التطبيقي الذي يختبر سلامة التنظير، ويسعى لبلورة نظرية في قراءة النص الشعري العربي ومواجهته بأدوات نقدية عربية، وتقنيات عربية تستفيد من الآخر وتنفتح عليه بعد ربطها بجذور النقد العربي القديم. وستأخذ الدراسة نماذج تكشف عما أعلنه عنوان الدراسة، ألا وهو التأسيس لثقافتي الحوار والتأويل مع التركيز على كتابه الموسوم بـ"عتبة التأويل وعتمة التشكيل". باختيار نموذج تحليلي واحد من أربعة نماذج قدمها هذا الكتاب.

الكلمات المفتاحية: التأصيل، ثقافة الحوار، التأويل، المدونة النقدية.

Abstract:

Up to this date, the critical studies of the critic and the academic Bassam Quttous consist of thirteen critical books, and more than thirty research papers published in refereed scientific journals, as well as dozens of works presented in local, Arabic, and regional critical conferences. This critical project, which took more than a quarter of a century, is based on a critical vision that combines critical rooting with praxis that testifies to the integrity of theorizing. It seeks to refine a theory in the reading of the Arabic poetic text and confront it with Arabic critical tools and techniques that benefit from and are open to the other, after relating it with its archaic Arabic critical roots. The study deals with some of Quttous books, which were founded on the culture of dialogue and interpretation, with a focus on his book entitled Threshold of Interpretation and Darkness of Formation (2011). We will select one of the four analytical models presented in the book.

Keywords: *Rooting, Culture of Dialogue, Interpretation, Critical Studies.*

* المؤلف المراسل

1. أركيولوجيا الناقد (قراءة في الأسس المعرفيّة والنقديّة):

لا تدّعي هذه الورقة قدرتها على الإحاطة بالمدوّنة النقدية التي تشكلت على شكل مشروع نقدي امتد العمل فيه لأكثر من ثلاثة عقود لناقد وباحث وأستاذ جامعي مثل بسام قطوس، درّس في عدة جامعات أردنية وعربية (اليرموك،الكويت،الشرق الأوسط، سلطنة عُمان)، لكنّها ستأخذ نموذجاً واحداً يكشف عما أعلنه عنوان الدراسة، ألا وهو التأسيس لثقافتي الحوار والتأويل في المدونة النقدية للدكتور قطوس، التي ابتدأت مع نشره بحوثه العلمية في المجلّات العلمية المحكّمة،ثم امتدت إلى بداية نشره كتبه النقدية، وهي: "استراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي" (1998)، التي أسس فيها لثقافتي الحوار والتأويل، و"سيمياء العنوان" (2001)، الذي أسس لثقافة قراءة العتبات النصية قراءة تطبيقية، عبر عتبة مهمة من عتبات النص ألا وهي عتبة العنوان، ليتدرج في الانتقال من التأويل إلى خطوة أبعد فيما وراء التأويل وهي ما أسماه "التأويل المضاعف"في كتابه "الخروج من الطين: التأويل والتأويل المضاعف" (2012)، وهنا يبدو الحذر في استخدام مصطلح التأويل المضاعف وليس اللامتناهي كما درج على لسان التفكيكيين؛ آية ذلك أن الناقد هنا يدرك أن التأويل يفتح إمكانيات القراءة والحوار لممارسة أعلى فعالية تأويلية ممكنة دون الانسياق إلى فكرة لانهائية التأويل، حتى لا نقع فيما أسماه "الترف التأويلي"[1].

ونظراً لأننا قرأنا بعض ما كُتب عن مشروعه النقدي، سواء ما كتبه بعض النقاد والدارسين، أو ما وقعنا عليه من وثائق يتخذ بعضها طابع السرية، كتقارير محكّمي جائزة البابطين للإبداع النقدي، التي مُنحت للناقد قطوس عام 2006، وقد حصلنا عليها لهدف علمي واحد هو تشكيل صورة علمية دقيقة عمّا قدمه للمكتبة النقدية الحديثة[2]. وهي تقارير لها قيمتها العلمية؛لأنها كتبت من قبل محكِّمين :أساتذة في النقد، وهم لا يعرفون من هو كاتبها، ومن هنا تبدو موضوعية هذه الأحكام النقدية، وبعدها عن المجاملة. وتقدم تلك التقارير إلى جانب آراء النقاد والدارسين صورة علمية عما قدّمه للمكتبة النقدية العربية الحديثة، وكيف تمّ استقبال كتبه النقدية من قبل النقاد والدارسين.

وقد انطلق هذا المشروع النقدي بعد تحصّله على درجة الدكتوراة في النقد الحديث من الجامعة الأردنية عام 1988، من رؤية نقدية تجمع بين التأصيل النقدي والإجراء التطبيقي الذي يختبر سلامة التنظير، ويسعى لبلورة نظرية في قراءة النص الشعري ومواجهته بأدوات نقدية عربية، وتقنيات عربية تستفيد من الآخر وتنفتح عليه بعد ربطها بجذور النقد العربي القديم.

ثم تابع قطوس نشر كتبه العلمية، مؤكداً على رؤيته ومنهجه في قراءة النص الشعري منذ أول كتاب نقدي أصدره عام 1998م وحمل عنوان : "استراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي"، وكأنه يعلن في عنوانه رؤيته النقدية التي تتغيّا الجمع بين التأصيل بالعودة إلى الجذور النقدية الممتدة من أرسطو إلى النقد العربي، والتحديث بالاطلاع على نظريات النقد الحديث ومناهجه، كما توسّع من دائرة التحليل النّصي بـ"طرائق جديدة أسماها استراتيجيات"، تشكل كل استراتيجية مدخلاً نظرياً وإجراء تطبيقياً يدرس نصاً شعرياً، أو ديواناً شعرياً، أو ظاهرة أسلوبية، وهي استراتيجيات تتضافر على محاولة توسيع دوائر التأويل، بحثاً عن النصوص الغائبة، أو كشفاً للمسكوت عنه، وغوصاً في أعماق النصوص يحاورها ويستجلي مكنوناتها، ويربطها

بمرجعياتها المعرفية: فكرية، وفلسفية، ونفسية، وسواها مما أنتج مفاهيمها ومصطلحاتها.

يقول محمد خرماش في دراسة لاتجاهات النقد الأدبي الحديث في الأردن في هذا السياق:

"...في حين نجد أبحاثاً مستجدة في التوجه القرائي المعاصر بتشغيل بعض مفاهيم القراءة ونظرية التلقي في معالجة النصوص ومن ذلك مثلاً كتاب "استراتيجيات القراءة التأصيل والإجراء النقدي" لبسام قطوس. وهو كتاب يحاول في دراساته التطبيقية أن يستعين ببعض المفاهيم الحديثة من النقد النصي مثل التفكيكية والشعرية والأسلوبية وغيرها".

ثم يشير في نهاية الدراسة إلى القول: "ولذلك يمكن القول بأن نقده نصي يستهدف المرجع ، أو نقد مرجعي عن طريق ما هو نصي"[3]. وقد أشار قطوس إلى سعيه إلى اجتراح إجراءات نقدية فعّالة، بعد مساءلة النظريات النقدية الوافدة عما أنتجته من مصطلحات ومفاهيم يعرضها على الموسوعة النقدية العالمية، قوله: "لقد بات عمل الناقد، اليوم، مساوياً لعمل المبدع، أو هابطاً عنه، أو متفوّقاً عليه، حسب قدرة القارئ، فهو قراءة للبنى العميقة في النص، ومحاولة لتسويغ جمالياته، وإسهام في فك شيفرته ورموزه"[4].

وفي هذا رسم أول معالم ثقافتي الحوار والقراءة التأويلية في "إستراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي"، ثم تابع تنمية منهجه وتطويره في القراءات التأويلية في كتبه اللاحقة: (سيمياء العنوان، 2001)، و(تمنع النص متعة التلقي: قراءة ما فوق النص، 2002)، و(الإبداع وكسر المعيار: رؤى نقدية، 2005). ثم خطا خطوات أبعد في التأسيس لثقافة التأويل ، ثم فيما وراء التأويل في كتابيه (عتبة التأويل وعتمة التشكيل،2011)، و (الخروج من الطين: التأويل والتأويل المضاعف، 2012) ثم (أفخاخ النص: الرحلة إلى المعنى، 2014)، و (درويش على تخوم الفلسفة، 2019)، وهو مشروع نقدي ما زال مستمراً، وينتظر المزيد مما يضاف لمدونته النقدية.

ويتضح لقارئه ذلك الخط الفكري الواضح، ويتمثل القاسم المشترك بين كل هذه الإصدارات في إخلاصه للتراث النقدي العربي وتمكّنه من أدوات الحداثة (وهذا ما أشار إليه العديد من دارسيه الذين سنقف عند مقتبسات من أقوالهم)، فهو لم يسع في جل كتاباته إلى ما يسمّى رمزياً بـ" قتل الأب التراثي"، مثلما فعل بعض الحداثيين العرب الذين أعرضوا عن تراثهم وغرّتهم الحداثة الوافدة دون تمحيص مفاهيمها ومصطلحاتها، أو الغوص في خلفياته الفلسفية والمعرفية، ولكنّه عمل على إحيائه وبعثه برؤى جديدة ووسائل حديثة، تنظر في الأصل التراثي، ولا تفتقر إلى العمق والجدة، وتحفر معرفياً وجمالياً على النص المقروء لتقدمه في بعده الحديث ورؤيته المعاصرة. هكذا يتابع الناقد رسم معالم منهجه النقدي أو "القرائي" على وفق تعبيره وما ارتضاه من مصطلحات أثبتها لنفسه؛ حيث يقول:"...وهذه العملية تُسمَّى القراءة عوضاً عن النقد، لما قد يحمله النقد من وجهة نظر سلطويّة، وفي كثير من الأحيان استعلائية، في حين تنحو هذه القراءات منحى تأويلياً يأتلف من معطيات نقدية مستمدة من موردين:

الأول: النظر النقدي العربي القديم بكل ما يمثله من أصالة، وما ينطوي عليه من جهد معرفي...إلخ.

والثاني: نظريات النقد الحديث بأصولها المعرفية والفلسفية والفكرية، التي بدأت مع أرسطو(384-322ق.م)، وطوّرها النقاد الغربيون، وأسهم فيها النقد العربي أيضاً.

فهو يؤمن بالقراءة والتأويل ولا يدّعي امتلاك الحقيقة: حقيقة النص المقروء، ويحذّر من سلطة النقد الاستعلائية، بل ويدعو إلى ديمقراطية القراءة، وهي دعوة تثاقفية تسعى إلى استكناه ما لدينا من تراث نقدي ومعرفي مهم يمكن إعادة قراءته في سياق التطور المعرفي، مع التركيز على الجانب الإجرائي أو التطبيقي، "قصْدَ بلورة نظرية في قراءة النص الشعري، ومواجهته بأدوات نقدية عربية، وتقنيات عربية أفادت من الآخر، وانفتحت عليه بقدر ودونما إسراف، من خلال التمكن من مناهجه و/أو نظرياته النقدية الحديثة حيثما كان ذلك ممكناً وفي مصلحة توسيع آفاق قراءة النص الشعري العربي، دون قَسْرٍ أو لَيٍّ لأعناقها، لتختار كل استراتيجية أو مقاربة منهجها في قراءات كاشفة، حاولت إعادة إنتاج النص المقروء، على وفق ما اختطت لنفسها من رؤية"[5].

لقد أكد على تلك الرؤية النقدية الإبداعية التي حكمت دراسات قطوس، عدد من النقاد الذي قدموا و/أو درسوا بعض كتبه النقديّة، مثل عماد الخطيب في "هوية العنونة"، وأحمد الزعبي، أستاذ النقد الحديث في جامعتي اليرموك والعين، يقول في تقديمه لكتاب (استراتيجيات القراءة): "تنتمي هذه الدراسات النقدية إلى ما اصطُلح على تسميته بـ(النقد الحداثي) وهي دراسات جادة وعميقة وجريئة في نصوص أدبية هي أيضاً جريئة وعميقة، تثير إشكاليتي الشكل والمضمون. وقد وفّق الناقد بسام قطوس في اختياراته لنصوصه أولاً، وفي اختياره عنواناً موحياً لهذه الدراسات ألا وهو (استراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي) ليلفت الأنظار إلى مسألة مهمة في النقد الجديد أو النقد الحداثي وهي: (ميتا- نقد) أو (Meta Criticism)، ويعنى هذا المفهوم (ميتا- نقد) بثقافة الناقد أو القارئ العارف وبمرجعياته المعرفية: الفكرية، والجمالية، والنفسية، وبرؤيته الخاصة للنص المقروء، وهو ما يطلق عليه الناقد (استراتيجيات القراءة أو النقد)[6].

ويصف سعد مصلوح كتاب قطوس (إستراتيجيات القراءة) في طبعته الثانية:

"... وأول مجالي الإتقان والافتنان، أن صاحبه يمدُّ عينيه إلى مشارب النقد المشرعة في حاضر هذا العلم ببصرٍ نافذٍ غير خاسئ ولا حسير، يحيط بألفاظها فلا يتعبّده منهج، ولا تحجبُ عنده رؤيةٌ رؤيةً، ولا يعنو عقله لمدرسة دون مدرسة، بل يدع النص ليقترح ما يواشجه ويستخرج كمينه من مذاهب النقد. بذلك يفي الناقد لمنقوده، ويعفي قارئه من رتابة الوَقْع، وإملال السأم، وسذاجة النَّغم، وتتبدى القصيدة في ثوب مقدود عليها بيد صنَّاعٍ يكشف عن مفاتن الإبداع فيها...إلخ"[7].

ويدعم هذه المقبوسات لأساتذة ونقاد متخصصين من جغرافيات عربية مختلفة ما أكدت عليه لجنة التحكيم (وهم أساتذة من جغرافيات عربية متنوعة) في حيثيات حكمهم على استحقاقه جائزة الإبداع النقدي ، تلك هي "جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين" في دورتها المنعقدة في باريس (دورة أحمد شوقي ولامارتين، 2006)، حيث تقول: "إن الكتب التي تقدم بها الناقد بسام قطوس تتميز بكونها تحاول أن تتشكل في هيئة مشروع يتناول بالدرس قضايا الشعر والشعرية في الثقافة العربية، واتسمت هذه الكتب بالحرص على تنويع طرائق مقاربة هذه القضايا، ولذلك جاءت هذه الكتب على شكل دراسات بعضها يكمل البعض الآخر"[8].

ويتحدث الدكتور سعد مصلوح عن تلك اللغة النقدية العالية التي يواجه بها قطوس النصوص المدروسة التي صاغتها عبقريات أرباب الصناعة الشعرية، وتلك الرؤية التي تجدل التأصيل بالممارسة التطبيقية، فيقول: "وأما رابع هذه المجالي(مجالي

الإتقان والافتنان) فلا مناص من أن نعرّج فيه بالذكر على اللغة النقدية التي تتلون في تهاويلها انكشافاً مُسْفِراً، وغموضاً شفيفاً، فلا نرى من خلالها إلا ناقداً يشعر أو شاعراً ينقد، فلا صاحبها بالغريب القصيّ عن هؤلاء أو أولئك، ولكنه منهم في صُحبة مؤنسة، وهو من قارئه رائد لا يكذب أهله، يطوّف به في ألفاف غابة الإبداع، مستجلياً ومجلياً كل ستير وخبيء من مواطن الفتنة ومظاهر الجمال"[9].

وربما يحسن ونحن نتناول المدونة النقدية لقطّوس أن نقف عند ما قاله الناقد الأردني الدكتور زياد أبو لبن وهو يصف منهج قطّوس في الجمع بين التأصيل والتحديث: "يأتي كتاب بسام قطوس (تمنُّع النص متعة التلقي: قراءة ما فوق النص)،إضافة حقيقية للنقد العربي، في مفهوم النظرية والإجراء،....وتأتي الدراسة هذه على توظيف ما تأصّل من تراثنا النقدي والفكري، متخذاً من عبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) أنموذجاً للقراءة، ومستفيداً من القراءات النقدية المتعددة المصادر شرقية وغربية... وهذا الكتاب يدل دلالة واضحة على وعي متقدم، ورؤيا متبصرة في الشعر العربي، وثقافة واسعة في معطى النظريات النقدية الحديثة"[10].

وتقف الدارسة عريب عيد عند ما قدمه كتاب (تمنّع النص) من الالتزام بمنهج التأصيل النقدي برؤية حداثية وهو ما أشرنا إليه في تأسيس هذه المقاربة، فتقول: "ينفي الكاتب في مقدمة كتابه أن يكون القارئ عالة على النص، وإنما يعد القارئ الثقف العارف مبدعاً؛ لما يمتلكه من الخلفية الفكرية والفلسفية والرؤية النقدية التي تؤهله للتحاور مع النص، ومفاوضته وفتح آفاقه ومغاليقه فنراه لا يغفل المنطق الخاص لتراثنا اللغوي (قراءة تأصيلية)، وفي الوقت نفسه يتعامل مع الواقع النقدي المعاصر(قراءة ابتكارية معاصرة)". ثم تصف تقسيماته للقارئ بأنها من التقسيمات الطريفة التي يقدمها الكاتب لقارئ النص، حين صنف القارئ على ثلاثة مراتب:

(حامل، ومحمول، وعاجز)، أما (الحامل): فقارئ ثقف ذائق يرقى بفكره وثقافته وذوقه المدرب إلى مستوى النص، فيقرأ ما فوق النص وما تحته كأنه يحمله. أما (المحمول): فهو من يقصر عن الوصول إلى أفق النص، فيكون شارحاً أو مفسراً حسب. وأما (العاجز): فيأبى أن يحمل النص لخفة فيه وثقل؛ فالخفّة تقعده عن حمل ما هو أثقل منه(النص)، وأما الثقل فهو الذي يمنعه من الوصول إلى أفقه أو الإنصات لندائه وكأنه لا يسمح بحمله"[11].

2. المنجز النقدي، (بين الدراية والإبداع، ونقد النقد) :

وإذا ما انتقلنا إلى كتبه النقدية الأخرى فلا بد من الوقوف أمام كتابه الموسوم بـ(سيمياء العنوان) الصادر بدعم وزارة الثقافة الأردنية، عام 2001م، فهو كتاب تأسيسيٌّ في حقله؛ أي حقل قراءة العتبات النصية قراءة سيميائية، ويعدُّ من الكتب الرائدة في سياق ما أسماه الغرب "علم العنونة"، وبخاصَّة في الجانب التطبيقي منه على عنوانات للمنجز الشعرى، وأخرى للمنجز الروائي. وقد أشار قطوس إلى أن اهتمامه بموضوع العنونة بدأ عام 1994م عندما كتب بحثاً شارك فيه في المؤتمر العلمي الذي أقامته كلية الآداب بمنوبة في جامعة تونس، بعنوان (الزمان والمكان في أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي). يقول قطوس: "وقد تحدثت في البحث عن العنوان الكبير(أحد عشر كوكباً)،وحاولت ربط العنوانات الفرعية التي وردت في الديوان المذكور بالعنوان الكبير، لأخلص إلى أن قصائد الديوان كلها

بعنوانها الفرعية المختلفة تشكل قصيدة واحدة يتضمنها أو يختزلها العنوان الكبير. ورأيت أن ثمة علاقة جدلية بين هذه العنوانات المتآزرة والمتضافرة في الفضاء الشعري مع العنوان الكبير، محدثة وحدة نفسية وفنية، وأثراً جمالياً واضحاً للقارئ"[12]. ويتابع قطوس قائلاً: "وفي المناقشات التي أعقبت مداخلتي النقدية،..برز من المداخلين باحث وأخ عزيز،...ليشكرني على الالتفات إلى موضوع العنونة مقترحاً عليَّ التركيز على هذا الموضوع العلمي والنقدي المهم في مجال الدراسات النقدية الحديثة، لندرة المتحدثين من العرب فيه،...وهو ما يطلق عليه الفرنسيون (Titrologie). كان ذلك الباحث الأخ الزميل محمود الهميسي الذي توثقت بيني وبينه صداقة وعلاقة علمية، توّجتها مراسلات علمية أفدت فيها من خالص علمه وأدبه الجم"[13]. ثم يذكر قطوس أن زميله محمود الهميسي قد شارك بعد سنتين من تقديمه بحثه في مؤتمر النقد الأدبي السابع الذي يقيمه قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة اليرموك، وكان ذلك ما بين (15-17 تموز من عام 1996) ببحث عنوانه: (براعة الاستهلال أو في صناعة العنوان مدخل إلى علم العنونة)...وأبى كرم الزميل إلا أن يذكر أمام المؤتمرين، على غير علم مني، هذا الاهتمام المشترك بيني وبينه في موضوع العنونة، فكان هذا حافزاً شجّعني ... فبدأت أجمع وأقرأ وأتأمل كل ما يقع تحت يديّ من الكتب والمقالات، ثم أضمّ ما أجمعه في كُنَّاشات لا اتصال بين واحدة منها والأخرى إلا في اهتمام كل هذه الأوراق بأمر العنونة...ثم بات ما جمعته خلال ثلاث سنوات، على تراخ مني وتناس، يشكل حصيلة لا بأس بها، فعزمت على كتابة سيمياء العنوان، متوكلاً على الله ومفوضه في أمري"[14].

ولعل هذا النص المقبوس، على طوله، وقد حاولنا اختصاره، يدل على أمرين مهمين، وهما: الأول: صراحة الاعتراف وشجاعته، واحترام معرفة الآخرين، وإعادة الفضل العلمي إلى صاحبه حتى لو لم يكن هذا الرأي موثقاً في كتاب أو بحث؛ حيث لم يشأ قطوس أن يدّعي معرفته بموضوع (علم العنونة) قبل هذا اللقاء العلمي، الذي عرف من خلاله أن ورقته البحثية تقع في خانة أوسع مما تصوّره شخصياً عندما كتب بحثه المشار إليه آنفاً في العنونة .

والثاني: هو إدراك حقيقة تطوير الذات النقدية من خلال الاتصال بالآخر، الذي قدم إسهاماً للنظر النقدي الحديث بغض النظر عن منبته أو مكانه، وهذا يؤكد على الرؤية النقدية التي أشرنا إليها في بداية حديثنا عن حرص الدكتور قطوس على الجمع بين التأصيل والتحديث، وترسيخ منهجه القائم على أن النقد عمل تراكمي وتكاملي بامتياز[15].

وللعلم فقد حرّك هذا الكتاب إلى جانب الكتب التي سبقته، وبخاصة في جانبه التطبيقي على الشعر والرواية، العديد من الأقلام، والبحوث والدراسات الأكاديمية لدرجتي الماجستير والدكتوراة في كثير من الجامعات العربية، وكلها كانت تقبس (سيمياء العنوان) وتوثقه. وكانت الباحثة ليلى السيد من أوائل من تحدثوا عن قيمة الكتاب النقدية، وأهميته للدراسات الخاصة بالعنوان، فقالت: "يتعرض الباحث بسام قطّوس في كتابه (سيمياء العنوان) إلى موضوع (عنونة الكتاب) وأبعاده الدلالية والرمزية وذلك ضمن منظور سيميائي؛ ورغم أن الدراسات العربية الحديثة في تحليل النص كثيرة، إلا أن انشغال الباحث بهذا الباب يعدّ قليلاً..."، ثم عرضت الكتاب عرضاً نقدياً في جزئيه النظري والتطبيقي، ووقفت عند أمثلة من تطبيقاته[16].

ثم توالت الدراسات والرسائل الجامعية التي أفادت من هذا الكتاب وسواه من الكتب؛ فقد حظي بقراءات ومتابعات من عديد النقاد والدارسين[17].

وفي مراجعة علمية للباحث الأردني الدكتور مصلح النجار، نشرها في مجلة جامعية متخصصة في السيميائيات، وتصدر عن مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب في جامعة وهران – الجزائر، يقول: "يجيء كتاب بسام قطوس (سيمياء العنوان) بعد مجموعة غير قليلة من الجهود النقدية ...وهو موضوع مهم، ومدخل حساس لمقاربة النصوص الأدبية"، ثم يشير إلى ما يتميز به قطوس من استقصاء الباحث الأكاديمي، وذوق الناقد المبدع، وشراكة القارئ في إعادة إنتاج النص"[18].

ويقول النجار في موضع آخر من البحث نفسه، بعد أن قدم فصول الكتاب بالقراءة والتحليل: "لقد رصد قطوس، وعالج، وأبدع في التقسيم والتصنيف، مداخلاً بين قدرته النقدية، وملكته الإبداعية، منتشراً انتشاراً أفقيّاً حيناً، ومجلياً في دراسة رأسية أحياناً، وكل ذلك محسوب له في ميزان التقدير" ثم يحتفظ النجار لنفسه ببعض مواطن النقاش مع الناقد مما يستكمل صورة الحوار العلمي الذي هو دعوة أصيلة في منهج قطوس[19].

ومن المغرب العربي تحدّثت الدكتورة نجوى عبد السلام بناني الأستاذة بجامعة أم القرى في مكة المكرمة عن كتاب (سيمياء العنوان) حديثاً نقدياً مطوّلاً واحتفت به قائلة: "كان لكتاب الدكتور بسام قطوس سيمياء العنوان تأثير واضح في تأصيل هذا النوع من الدراسات؛ إذ يمنح العنونة الشعرية والسردية موقعاً أثيراً في القراءة النقدية. فالدراسات النقدية العربية لم تلتفت إلى ظاهرة العنونة بوصفها مفتاحاً نقدياً إلا منذ سنوات قليلة، وخصوصاً بعد انتشار الدراسات السيميائية وشيوع النقد البنيوي والتفكيكي للنص. وتتابع قائلة:

"لا تزال الساحة الأدبية تنجلي بين فترة وأخرى عن مناهج جديدة لقراءة النص الأدبي بكل أبعاده، عتباته وسياقه ومبدعه ونصه ومتلقيه. والعنوان كعتبة نصية لم ينل – على ما يبدو - نصيباً طيباً من الدراسة بعد، اللهم إلا أبحاث قليلة، منها هذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي تناول العنوان باعتباره نظاماً سيميائياً ذا أبعاد دلالية ورمزية وأيقونية"[20].

ثم وقفت الباحثة وقفة متأنية عند ما أسمته (آليات المنهج النقدي) لكتاب سيمياء العنوان فرأته يأتلف من معطيات نقدية على رأسها التحليل السيميائي، منطلقاً من فهم خاص في جس العنوان وربطه بمضمون النص، ويربط كذلك دلالة العنوان بدلالة العناوين الداخلية، سواء أكانت قصائد في ديوان، أو فصولاً في رواية؛ إذ "اعتمدت طريقة الباحث على الاختيار، وفق ما يلاحظه بقراءاته الواسعة من وظائف للعنوان، ولذلك نجد مباحثه معنونة بهذه الوظائف، ثم يسرد عدداً من العناوين تمثيلاً على الوظيفة...،ويعتني بأحدها لتحليله ووضع اليد على طريقة استنتاج الوظيفة من العنوان"[21].

إن اتساع الرقعة الجغرافية لدارسي وناقدي كتب قطوس تشير إلى أهمية تلك المدونة النقدية، فضلاً عن تتويج هذه الشهادات بشهادة إبداعية من تقرير لجنة التحكيم لمؤسسة عالمية، تلك هي مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، التي منحته جائزة الإبداع النقدي عام 2006، حيث ذهبت إلى وصف الدكتور قطوس بالقول:

"إن الناظر في كتب قطوس يدرك في يسر أن صاحبها على دراية بالنص الشعري المعاصر، وبأسئلة الشعر

في الراهن العربي. كما أنها تكشف أن منتج هذه الكتب مطلع اطلاعاً ضافياً على منجزات حركة النقد العربي المعاصر ومنجزات المناهج والنظريات المستحدثة في الثقافات الغربية، وهي دراسات جادة تتميز بالصرامة العلمية"[22]. ويحمد للناقد قطوس اطلاعه على مصادر الشعر الحديث العربية والغربية وكذلك مصادر الشعر التراثي. فهو باحث جادٌّ متعمق في مظاهر القصيدة الحداثية، متمكن من اكتشاف مواطن الإبداع فيها. وقراءاته في الشعر الحديث كثيرة، وهو يستخدم في كل قصيدة أسلوباً يلائم شكل القصيدة ومحتواها، وهذه الميزات المتعددة هي التي أهلت الناقد للفوز بجائزة الإبداع في مجال نقد الشعر"[23].

ويشير موقع أبجد، وهو موقع عربي لمحبي القراءة، في استطلاع لأكثر الكتب قراءة ، حيث سمى ثلاثة كتب نقدية لقطوس، وعلق على أحد كتبه، وتساءل كيف أقرؤه، بما يحسن أن نصوّره بتمامه عن الموقع https://www.abjjad.com. ونلحقه بالهوامش[24].

3. ثقافة الحوار وديمقراطية القراءة:

وإذا ما انتقلنا إلى الكتاب الهدف، وهو (عتبة التأويل وعتمة التشكيل) الصادر عام 2011، عن وزارة الثقافة الأردنية، وهو الإصدار التاسع بين كتبه النقدية التي شكلت مشروعه النقدي في تلك المدوَّنة، وهو كتاب محكّم، ومعظم إنتاج قطوس محكّم؛ لأنه منشور في مؤسسات علمية تطلب التحكيم، يقول في أول جملة في "فاتحة الكتاب":

"استكمالاً لمشروعنا النقدي ولرؤيتنا التي أسسنا لها في عديد الكتب النقدية التي أصدرناها خلال العقد المنصرم، يسعدنا أن نقدّم كتاباً للمكتبة العربية وسمناه بـ(عتبة التأويل وعتمة التشكيل)،آملين أن يشكل لبنة أخرى تنضاف إلى مدماك آخر عمّرناه في التأسيس لثقافة الحوار بين النص بأبعاده المعرفية والفنية والتشكيلية، والناص أو المؤول وما يمتلك من مرجعية فكرية ومعرفية ونقدية تؤهله لافتضاض خاتم النص بوصف الأخير أرضاً بكْراً، أو إضاءته بوصفه رمزاً للعتمة على وفق هدجر"[25].

هكذا يعلن أن هذا الكتاب ما هو إلا لبنة في معمار مشروعه النقديّ، مما يدعو الدارسة الحاليَّة بل يحتِّم عليها أن تعود إلى تلك المدونة النقدية منذ كتابه الأول الموسوم بـ (استراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي،1998) بل العودة إلى ما نشره من بحوث علمية في المجلّات العلمية المحكّمة، وهذا ما فعلته الدارسة الحالية.

أما عن أهمية الكتاب النقدية ومنهجه، فسنعود إليها بعد تقديم لمحة سريعة عن طرائقه في مفهمة عنواناته، وهي خصيصة مميزة تتضح لقارئ تلك العنوانات.

3-1 مفهمة العنونة: فتنة العنونة:

لقد وقفنا على طرف مما خص به الدارسون بعض كتبه النقدية، وبخاصة كتابه (إستراتيجية القراءة: التأصيل والإجراء النقدي)، ورأينا إخلاص العنوان لمنهج الناقد القائم على تأسيس ثقافة الحوار وديمقراطية القراءة، وتبنيه للحوار المفتوح، ويتضح ذلك في قوله:

"ولعل في اختياري عنوان كتابي (إستراتيجيات) ما يبرر توجهي في اختيار الكلمة المعرّبة أو المقترضة، وذات الأصل الغربي Strategies، معلناً بأن القراءة تتغيّر بتغير المقروء أولاً، وبتغير الإستراتيجية الخاصة لكل قارئ وفقاً لمرجعيته المعرفية ،وقدراته على إدراك علائق النص المقروء"[26].

وفي كتابه (سيمياء العنوان) نلحظ أيضاً تلك المهارة في مفهمة العنوان ، وشرح كل مفردة فيه تدل على معناه الذي يراد البحث عنه.

وفي كتابه الموسوم بـ (الخروج من الطين: التأويل والتأويل المضاعف)، سواء بعنوانه الرئيس أم الفرعي، نلمس المهارة في إنزاله العنوان منزلته، وتكييفه على دلالته المفهومية والرمزية على نفسه، فتراه يقف عند كل كلمة في العنوان المظلة ليشرح معناها ودلالتها، فيقبس من بعض المتصوفة قولهم: "في البدء كان الطين" ثم يكمل: "حيث خلق الله الإنسان من سلالة من طين"، ثم يستشهد بالآيات القرآنية الدالة على خلق الإنسان من طين، ثم يتابع: "منذ ذلك ظلت الروح هي ذلك الغامض الذي لا يعرف البشر كنهه، وحكم على الجسد (الطين) بالموت/بالمحو، ما دامت الروح بيد الله يأخذها حين يشاء...إلخ"[27]. ثم يتابع الناقد شرح الدلالة الفكرية لعنوانه بقوله:

"ففي الدلالة الفكرية يرمز عنوان (الخروج من الطين) لمحاولة الخروج من محدودية الجسد(الطين) إلى أبهاء الروح ورمزها الخلود بمعناه الأسطوري (جلجامش مثلاً) أو الإبداعي (خلود أشكال الفن)، وفي الدلالة الشعرية يرمز لمحاولة الخروج من أسر اللفظ إلى رحابة المعنى ثم إلى معنى المعنى ...بهذا المعنى، يصير الإبداع (الممتلك للرؤيا) بشتى أشكاله محاولة للخروج من (المحدود/المتناهي) إلى معانقة (اللامحدود/اللامتناهي)، وتصير أشكال الإبداع، وعلى رأسها الشعر، الموجّه لروح اللغة وطاقاتها الحدْسية، ممارسة روحية تسعى إلى التخلص من سجن الجسد/كينونته المادية (الطين) إلى كينونته الروحية"[28]. ولا يكتفي الناقد بكشف دلالة العنوان الرئيس وإنما يكشف عن مبتغاه من التأويل فيرى أن سؤال الشعر هو سؤال التأويل، بوصف الشعر، تأويلاً للمندسّ في دهاليز العتمة[29]، وبما يفرض على القارئ، أن يخطو خطوة أبعد فيما وراء التأويل، أي فيما وراء سؤال الشعر الذي هو سؤال التأويل، وأن يسير في مسار تأويل التأويل، أو التأويل المضاعف، إن شئت، بحثاً عن المندس في التجربتين: الوجودية الأولى، والمعرفية الثانية التي يمارسها الشعر. إن مهمة المؤول هي أن ينصت لذينك السؤالين وللحوار المتولد بينهما، ليصير الإنصات مضاعفاً، فيقع عمل المؤول الممتلك للرؤية والثقافة والدربة في تأويل ما تأوله الشعراء في مرتبة التأويل المضاعف"[30].

هكذا يبدو إخلاص قطّوس لمفهمة عنواناته ووضعها في سياقها الفكري والجمالي، في غير ما كتاب من كتبه، لاعتقاده بأن "العنوان موقف منهجي يستند على مرجعية معرفية، يتم من خلالها تحديد ما نتغيّاه من دلالة العنوان على ما سيتم بحثه، وهو تدريب القارئ قارئ الشعر الحداثي على وسائل قراءته وفهمه ...إلخ"[31].

ومثلما يبدو إخلاص الناقد لمفهمة عنونته، كذلك يتضح إخلاصه لتأصيل رؤيته النقدية في كل ما كتب، وقد أكد على هذه الخصيصة الناقد والأكاديمي محمد حسن عبد الله في أصالة الكتاب: "تحقّقت أصالة كتاب (الخروج من الطين: التأويل والتأويل المضاعف) في جانبين من أهم أركان العملية النقدية: أنه استخرج رؤيته من سياق أعمال أربعة من الشعراء المعاصرين المشهود لأشعارهم بالجودة- بوجه عام- دون تعسف في الاختيار أو تسطح في التعليل، وهذا الجانب الذي آثره يبدو عصياً على فهم المتلقي العام،بل على كثير ممن يمارسون نقد الشعر لأسباب تتعلق بالمنهج. الجانب الآخر: أنه اختار التأويل والتأويل المضاعف (أو المفرط كما فضل بعض المترجمين للمصطلح)، وهو ما يناسب لتوجهات الصوفية التي تتجاوز المعجم اللغوي، والمجازي، والصوري، والفلسفي، فلا يبقى لمجاراة تلك الأشعار غير العزف على إيقاعات الشاعر نفسه،

الذي يمزج المعرفة بالأسطورة، بحدوس ما قبل الأساطير...إلخ"[32].

هذا وسنقف عند نموذج واحد دال على طرائقه النقدية وإخلاصه لمنهجه المتغيًّا، وهو الفصل الرابع من كتابه (عتبة التأويل وعتمة التشكيل)، كما وعدنا في مفتتح الدراسة. فقد تناول قطوس، في هذا الفصل الموسوم بـ (عتبة التأويل وعتمة التشكيل) مسألة: (تأويل الغموض أو شبه المعتم: الشعر ومعضلة الاكتمال الناقص: محمد آدم نموذجاً)[33].

وقد قام بالحفر النقدي على قصيدة محمد آدم الموسومة بـ (مقام الوردة)، متخذاً منها نموذجاً لتأويل الغموض، أو ما أطلق عليه رمز (الاكتمال الناقص) مستفيداً من أسطورة العرافة وساحرة الأشجار سيبيلا[34]. وقد لفتني عنوان هذا الفصل الذي ينسجم مع العنوان الرئيس للكتاب، فهو ممن يحسن إبداع عناوينه التي تبدو وكأنها عتبات لنصوصه النقدية، فمهما غرّبت مواضيعه أو شرّقت، فإنها تبقى مشدودة إلى المنظومة العامة لعمله النقدي الذي يؤسس لثقافة الحوار بين النص بأبعاده المعرفية والفنية والتشكيلية، وبين الناص أو المؤوِّل وما يمتلك من مرجعية فكرية ومعرفية ونقدية تؤهله لافتضاض خاتم النص، بوصف الأخير أرضاً بكراً[35]. وكما يمثّل كل عنوان داخلي درجةً ترتقي عليها الأفكار حتى تصل إلى أعلى السلم، حيث العنوان العام.

2-3 منهج الناقد:

لقد ضبط الناقد منهجيته في النقد لرصد البنى العميقة والعلاقات الخفية المؤسسة للتأويل من خلال تأصيله للمفاهيم النقدية التي تشكل مفاتيح الدراسة في الانتقال من التأصيل للتأويل، بدءاً من التراث النقدي العربي (وهو المنهج التأصيلي الذي أشرنا إلى معالمه) إلى الإجراء النقدي أو الممارسة التطبيقية في سبر أغوار نص شعري، للشاعر محمد آدم، بحثاً عن ضوء في العتمة سمّاه (فائض المعنى)، مستفيداً من بول ريكور، ومتجاوزاً منهجه في الوقت نفسه، وهي خصيصة نقدية طالماً أشار إليها معظم دارسي بحوث قطوس وكتبه النقدية. يقول زياد أبو لبن في عرض نقدي لأحد كتب قطوس: "إن بسام قطوس قد تجاوز الشكل الفني للقصيدة وتعامل مع مستوى الشعر سواء أكان حديثاً أم قديماً...إلخ"[36].

تأتلف استراتيجيته التي أسس لها في الجهد التنظيري من معطيات وسياقات تهدف إلى الإسهام في فك شيفرة النص، وأهم هذه السياقات التي دار حولها التأويل والتي يمكن تسميتها "الاستراتيجيات العامة" التي استقيتها من قراءتي للمادة النظرية المفصلة في كتاب "عتبة التأويل وعتمة التشكيل". وأهم هذه السياقات التي أسس لها وصولاً إلى التأويل المضاعف، هي:

أولاً: **السياق النصي**، ويشمل :

1. نص الشاعر المؤوَّل، وهو المقصود بالدراسة.
2. نصوص الشاعر السابقة على النص الحالي المؤوَّل، التي يحيل إليها نصه الحاضر، أو يتناص معها، فهي غالباً ما تستكمل النقص أو الفراغ الماثل في النص الحاضر.
3. نصوص غيره ممن أحال إليها النص المؤوَّل، أو أفاد منها أو تناصَّ معها: قبولاً أو رفضاً، أو حواراً أو تمثُّلاً ..إلخ([37]).

ثانياً: **السياق الشخصي** للمبدع نفسه، صاحب القصيدة المدروسة، ويشتمل على سيرته الذاتية، والسياق الثقافي والتاريخي للنص؛ فنصوص الشاعر غالباً ما تكون غير منقطعة عن ماضي الشاعر التاريخي والثقافي، أو عن ذاكرته، فعلى المؤول ألا

يهمل السياق الخارجي للنص، بنفس القدر الذي يبحث فيه عن السياق الداخلي له، لأن العلاقة بينهما جدلية، وكل منهما يسهم في فهم الآخر، بل وسهم في فك شيفرته[38].

ويتضح هنا ما يعتقده قطوس من تراكم المناهج النقدية وتكاملها، وانعكاس ما يدرّسه لطلبته من اعتقاده بأن هذه المناهج، الخارجية والداخلية، وما بعدها من مشروع الحداثة، إلى ما بعد الحداثة من سيمياء وتفكيك ونظريات قراءة، ونقد ثقافي، إلى آخر مناهج النقد، ما هي إلا مفاتيح لكشف النص ومعاينته، وهي متكاملة في الوقت الذي قد تبدو فيه للقارئ المتعجل متناقضة.

ثالثاً: **السياق التأويلي**، ويشمل :

1. ما يقدمه النص من عتبات نصية، أو مفاتيح تأويلية رامزة، قد تبدأ بالعنوان، وتمضي إلى المقدمات والأشكال والمقبوسات.

2. التراث التفسيري أو التأويلي أو القرائي للنص، أي مجمل القراءات والتفسيرات التي تناولت النص وتأثيرها على فكر المؤول الحالي، فمثل ذلك التراث التأويلي يشكل جزءاً من الموسوعة المعرفية للمؤوِّل.

3. ما يقوم به الشاعر نفسه من تأوُّلٍ وتأويل يمارسه من خلال التصوير والتخييل، متجاوزاً

الإبلاغ إلى فضاء التخييل والتصوير الأبديين حيث يكمن فائض المعنى.

رابعاً: **الموسوعة اللغوية** في مستوياتها اللغوية وما فوق اللغوية. فالمستوى اللغوي هو (العرفي) الذي يحدد المعنى ويجعله مغلقاً ونهائياً. بينما المستوى فوق اللغوي (الإشاري) يجدد المعنى ويخصّب مستوى الدلالة، من خلال العدول والانزياح وكسر المتوقع. فعمق اللغة وإبداعها يكونان في باطن النص لا في ظاهره[39].

خامساً: **الموسوعة العامة**، وهي الجانب التداولي بكل أبعاده الثقافية والمعرفية والرمزية والأسطورية.. والذاكرة الجمعية بحسب كارل غوستاف يونغ jung والتي تسهم في فك الالتباس بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي وصولاً إلى تخوم المعنى. ويتفق ناقدنا مع الماوردي بأن المعنى المحجوب عن الإفهام كالمحجوب عن الأبصار، تعظمه النفوس، وله ما له في القلوب من التفخيم[40].

والشعر الذي يكتنفه الغموض يتطلب ناقداً عميقاً يحسن الغوص فيما وراء النص الظاهر، ليصطاد النص الغائب، ويحضره إلى عالم الدّلالة. فالشاعر يقول شيئاً ويخفي وراء قوله أشياء، والناقد الثّقِف مطالبٌ باستخراج بواطن المعنى من ظواهر الكَلِم، واصطياد المعنى من جوف الكلمة.

ولكي يتسنى للباحث إضاءة شبه المعتم، أو ما حجبته العتمة، فقد عمد إلى دراسة شاعره قبل أن يغوص في النص الغائب (مقام الوردة) التي تناولها بالتحليل والدراسة ليفك مغاليقها، وإن كانت القصيدة، قبل شاعرها، هي التي استرعت انتباه الناقد، وأثار غموضها في نفسه نداءً للتحدي، فقدح فكره واستحضر مراقي التجلي وسنّ يراعه، وراح ينبش في (اللاوعي الجمعي) الذي غرف منه الشاعر المدروس فلسفته ورؤيته للحياة والكون، ويكون متسلحاً بأدوات التأويل التي أضافها إلى أدواته النقدية العامة، ليقدم لقارئه ما هو " مسكوتٌ عنه من قبل شاعر مبدعٍ قام أصلاً بإعادة تشكيل خطابات منسيّة أو مندسّة في دهاليز العتمة، خطابات دمّرتها أفعال المحو، وراكمتها طبقات النسيان"[41]. **وتمثل ذلك في:**

أولاً: **مفاتيح التأويل الخاصة:**

تعرّف الناقد على الشاعر وعرّفه وألمح إلى ثقافته ومكانته الأدبية، من خلال سيرته الذاتية. من ذلك

قوله بأن الشاعر " أحدث نقلة نوعية في شعره في الشكل والمضمون على السطح وفي العمق، من خلال رؤية واعية تنبثق من التراث الذي قرأه وتمتد إلى جوهر الحداثة الشعرية"[42].

اطّلع على أعماله الشعرية الكاملة ليستبطن السيرة الداخلية لصاحب القصيدة من خلال أشعاره. وكذلك لتتشكل ألفة بين الناقد وأسلوب الشاعر، تُمكِّن الأول من سبر أغوار شعر الثاني عبر لغته ومفرداته المختارة وتراكيبه التي استودعها أفكاره وفلسفته ومشاعره.

تتبع ما وقع تحت يده من الدراسات التي تناولت تجربة الشاعر، ليشكل رؤيته الخاصة الموسومة ببصمته الخاصة، فلا يكون نقده نسخة مقلدة عما سبقه. وقد أشار إلى هذه الدراسات مثل: دراسة ماهر شفيق فريد الذي عدّ الشاعر من أعظم شعراء السبعينيات في مصر، وقال: إن صوره كونية كتلك التي نجدها في أشعار وليم بليك، وويتمان، وسان جون بيرس، وهنري مللر، ونثرهم. تغرب أحياناً إلى حد الاقتراب من تخوم السريالية"[43].

وكذلك ذكر دراسة أخرى عن محمد آدم لصلاح فضل، وكذلك كتاباً باللغة الإنجليزية وضعه عنه الأستاذ الدكتور محمد عناني. فضلاً عن كتاب صدر حول تجربته الشعرية ضمن سلسلة أعلام الشعر العربي المعاصر بعنوان (الحداثة وفلسفة الجمال)[44].

استحضر بعض النصوص الإبداعية التي تتعالق مع نص شاعرنا سواء من شعر الشاعر نفسه أو من شعر غيره من الشعراء، وكأنه يمسح الفضاء الإبداعي المكاني، فبدا كأنه يجمع شتات أفكار الشاعر الأفقية قبل أن يغوص في عمقها. من ذلك إيراده ذكر مجموعة الشاعر محمد آدم الشعرية بعنوان (أنا بهاء الجسد واكتمال الدائرة)، وكذلك ديوان الشاعر العراقي علي جعفر العلاق (أيام آدم)، وقصيدة (زهور) لأمل دنقل[45].

توغل في الزمان ليسبر أغوار اللاوعي الجمعي من خلال الأسطورة التي قد تكون وجهت فلسفة الشاعر ورؤيته للكون، منذ معضلة آدم الأول، مروراً بآدم الوريث، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. من تلك الأساطير معضلة العرافة سيبيلا التي طلبت لنفسها الحياة ونسيت أن تطلب معها دوام الشباب، التي رآها الدارسُ معضلة الحياة.. معضلة الاكتمال الناقص، التي تماثل البحث عن الموت الممتنع في (نشيد آدم). وهذا ربط يحسب للدراسة يدل على عمق رؤيتها وشمولية نظرتها في الحفر الفكري على خلفيات القصيدة الخاضعة للتأويل.

قدم لدراسته نص "مقام الوردة" بتفسير لمعنى الجسد ومكانته ورمزيته في الثقافية العربية، وكأني به هنا يتحسس الجزء الناقص من التكوين الإنساني في عرف ثقافتنا، حيث تغيب الروح حين يحضر الجسد، ويغيب الجسد حتى تحضر الروح، وكأننا نصر على نقصنا الذي قرّ في لاوعينا الجمعي منذ أن سقطت أوراق التوت، لتظل الروح تائهة بلا جسد، ويظل الجسد دنساً بلا روح.

اتخذ استراتيجية التدرج في كشف غوامض النصوص، فهو يورد مقطعاً يحمل فكرة معينة، ويمضي في سبر معانيه اللغوية الدلالية ومعانيه العرفانية، ليرفع الحجب عنها فيكشف ما وراءها من الأسرار، بادئاً مكاشفاته من عالم الشهادة المحسوس، ليرفع غشاوات النص، ويدرك ببصيرته النقدية ما حاول النص تغييبه خلف كثافة اللغة، وبهذا يراود الناقد النص عن معناه في مجاهداته المستبصرة، حتى يتجلّى له ما كان كامناً وراء الكلمات، وتائهاً بين السطور.

ثانياً: **مفاتيح التأويل المساندة:**

كانت وقفته في مقام الجسد، تلك الوقفة التمهيدية التي استشعر فيها الناقد فلسفة الجسد، فبدا وكأنه يطرق الباب الخارجي للسور العالي الذي يحيط بمقام الوردة، ويقدم بين يدي بحثة هدية تليق بهيبة المقام الذي هو مقدم عليه. ومن المفاتيح المساندة للتأويل، تلك الإشارات التي ألمح إليها الشاعر، وفهمها الناقد، فباتا وكأنهما يتناجيان بلغة مشتركة، تحتاج إلى إضاءات تجلّي عتمة التشكيل فيها؛ وهي، الوردة: شوك، شوق، توق، فتك. هذا بالإضافة إلى ما أورده من إشارات صوفية مستشهداً بالنصوص التراثية، كل ذلك كان بمثابة مفاتيح مساندة لتأويل النص المدروس.

3.3 نقد النقد: دراسة نص "مقام الوردة":

قبل أن يلج الدارس إلى عوالم قصيدة محمد آدم، اختار أن يبصِّر المتلقي بخفايا لغة الشاعر الإشارية، التي قد تتجاوز اللغة الإشارية الصوفية، وسمّاها قائمة التعريفات الآدمية (نسبة إلى محمد آدم) بأنها معجم موازٍ للغة المتصوفة. واختيار الناقد هذه الاستراتيجية تشبه إلى حد كبير تعلم الإنسان الفطري للغة، فهو يبدأ بتعلم الكلمات المفردة قبل أن ينطلق لسانه بالتعبير الحر.

وكدأب الذين لا يدخلون البيوت إلا من أبوابها، يدخل قطوس (مقام الوردة) من العتبة، وينبغي له ذلك وهو يدخل مقاماً، ولكن بحذر بالغ ليتفادى الأفخاخ المنصوبة في عتبات الأماكن الحصينة[46]. فهو يدرك أن المقام الذي جعله الشاعر لوردته يشي برفعة وسمو صاحبة المقام، مستحضراً الصبايا الجميلات اللائي قتلهن الحب بحسب الميثولوجيا القديمة، ولذلك كانت الوردة بالنسبة للشاعر والناقد معاً أرض الأنوثة البكر في غموضها وما تكنّه من أسرار عميقة. وهكذا يتوقف الباحث عند (سيمياء الوردة بين غموض الجسد ومعجزة الروح)، متقصياً أسرار الجمال في أبهى صوره، حيث كمال الحياة الذي لا يعتريه نقص، حين يتحد طرفا الحياة؛أي الروح والجسد.

ويتابع الناقد خيط تأويله، ليقف على إشارات هي أبعد من الحقائق برمزيتها التي تشف ولا تكشف؛ فالوردة شوك؛ وهذه حقيقة وأبعد من الحقيقة. حقيقة لأن سيقانها تحمل بعض الأشواك الخطّافية، وعلى الراغب في الاستمتاع برائحتها الزكية أن يصبر نفسه على شوكها. وأبعد من الحقيقة كونها في السياق التأويلي رمزاً للوسام، والوسام لا يصل إليه الإنسان إلا بعد مثابرة ومكابدة وكفاح، وذلك ثمن يدفعه صاحبه للوصول إليه، وهو رمز لكل طالب معرفة عليه أن يدفع ثمناً ما أجلَ الوصول إلى تلك المعرفة من خلال مجاهدة النفس، ورياضتها، ليستحق أن يتوّج بوسامها العرفانيّ أخيراً[47]. والوردة شوق؛ لأن الشوق عند الصوفية من مقتضيات المحبة وأثر لازب من آثارها، يقول القشيري: "الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب"[48] والشوق يسكن باللقاء، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الشوق إنما يكون إلى الغائب والحق تعالى حاضر لا يغيب[49]، والوردة توق؛ والتوق أعلى من الشوق، لأن التوق يكون مع الحرمان، ومن هنا يتمثل التوق الصوفي في توق الرّوح إلى الانعتاق.

والوردة فتك؛ والفتك أشدُّ من سابقه، وهذا يدل على التدرّج في تتبع صفات الورد من القاسي إلى الأقسى، وقد وفق الشاعر في الإفادة من حمولة هذه المصطلحات الرامزة. وهكذا يؤُول الرمز (رمز الوردة) إلى منتهاه عند الناقد المُؤَوِّل إن شئت، بحسبانه الوردة جزءاً من الطبيعة المعرفية لدى أهل الكشف،...ليصير للوردة مثلها مثل بقية الأحياء والموجودات، ظاهر وباطن، جسد وروح، إن شئت،

ففي حين يغري ظاهرها بالشهوانية، فإن باطنها يحتوي على الروحانية التي لا يمكن أن تكشف إلا للعارف أو السالك في دروب المعرفة ممن قدر له الكشف، بوصف الكشف مرحلة عليا من التوق الصوفي، وهو يتطلب المجاهدة والرياضة للوصول إلى العلم الصحيح. والعلم الصحيح عند الصوفية هو ما يقذفه الله في قلب العالم، وهو نور إلهي يختص به من يشاء من عباده. ومن لا كشف له لا علم له[50].

وعبر إليها من خلال ثنائية الجسد والروح، ذلك الجسد الذي تضبط الروحُ إيقاعه، فهو ليس جسداً طائشاً وبغيّاً كما شاع في الثقافة العربية، وليس مدنّساً ما دامت تحكمه الروح، وتسيطر على انفلاتاته[51].

هكذا يصل الناقد بعد رحلة التأويل هذه التي استعان فيها بمعارفه الأسطورية والنقدية والصوفية، إلى أن معضلة الاكتمال الناقص، التي جعلها عنواناً لفصله الرابع، لم تكن معضلة العرافة سيبيلا وحسب، ولا هي معضلة أبينا آدم الذي حاول أن يبتدئ الحياة ففاجأه الموت، وأراد الاكتمال ففاجأه النقص، بل هي معضلة محمد آدم نفسه بوصفه وريث آدم الأول ووارث الاكتمال الناقص[52].

فالوردة التي اجتمعت فيها كل هذه الخصال شكلت اكتمال الدائرة في ظاهرها وباطنها، جسداً وروحاً، وهو ما كان يبحث عنه الناقد في رحلة بحثه في مقام الوردة، فتمكن بنظرته الفاحصة الثاقبة، وبأدوات التأويل ومفاتيحه التي اقترحها، أن يصل إلى المساحات التي غيبتها عتمة التشكيل، فأضاءها بعتبة التأويل، عَبر لغة عذبة مشرقة تميزت بدقة عالية، ونمّت عن ملكة إبداعية رفيعة، ورؤية ميزت أسلوبه ببصمته الخاصة وهويته المتميزة.

وبعد؛

فقد أسهمت المدونة النقدية، التي عرضنا نماذج قليلة منها، في نقل النقد العربي الحديث من حيّز التنظير، وإن شئت النظرية المركّبة ذات الأسس المعرفية المركّبة، إلى حيّز الإجراء التطبيقي، من خلال الاشتغال والحفر على النص الأدبي العربي، شعراً وسرداً، بعد استيعاب واسع لجملة المقولات النقدية عربية وغربية، فكان صاحب إنتاج جمع بين التأصيل والتحديث، وأبدع في التطبيق، وهو ما يحتاجه النص الأدبي العربي.

الإحالات والهوامش:

(1) بسام قطوس، عتبة التأويل وعتمة التشكيل، سلسلة منشورات وزارة الثقافة، مطبعة السفير، عمان، الأردن، 2011، ص8.

(2) انظر: جمال البيلي، "الفائزون بجوائز دورة شوقي ولامارتين في دورتها العاشرة،2006" ، نشر مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين،2013، وتشمل تقارير محكّمي جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين في دورتها العاشرة التي منحت قطوس بموجبها جائزة الإبداع النقدي.

(3) محمد خرماش، اتجاهات النقد الأدبي الحديث في الأردن، الشابكة،manahijnaqdia.yoo.7.com.

(4) انظر: بسام قطوس، استراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي، دار الكندي، إربد، 1998، ط1، ص12.

(5) المرجع نفسه، ص11.

(6) أحمد الزعبي، مقدمة كتاب استراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي،ط1،ص7. وانظر: عماد الخطيب، هوية العنونة في الشعر السعودي المعاصر،ص21-22.

(7) سعد مصلوح، فاتحة الطبعة الثانية من كتاب استراتيجيات القراءة، القاهرة، عالم الكتب، ط2، 2005، ص7.

(8) جمال البيلي، الفائزون بجوائز دورة شوقي ولامارتين، ص14.

(9) سعد مصلوح، فاتحة استراتيجيات القراءة، ط2، ص8.

[10] زياد أبو لبن، نقود أدبية (مقالات في النقد والأدب)، دار الخليج للنشر والتوزيع،2014، ص122-123.

[11] غُريب محمد عيد، قراءة في كتاب "تمنُّع النص متعة التلقي قراءة ما فوق النص" لبسام قطوس، المجلة الثقافية الجزائرية، الشابكة،thakafamag.com.

[12] انظر: الزمان والمكان في ديوان "أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي" دراسة نقدية، وقد نشر البحث في مجلة جامعة اليرموك بعد سنتين من تقديمه للمؤتمر في العدد الأول،المجلد14، عام 1996،صص47-87). وانظر "سيمياء العنوان"،ص6.

[13] بسام قطوس، سيمياء العنوان، طبع بدعم وزارة الثقافة الأردنية بمناسبة عمان عاصمة الثقافة العربية،2002،ص7.

[14] المرجع نفسه، ص7.

[15] انظر: بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة، دار العروبة، الكويت، 2004، ص16.

[16] ليلى السيد: سيمياء العنوان لبسام قطوس، موقع الشابكة: (http://www.alimizher.com/n/2y).

[17] نذكر على سبيل المثال:(محمد خرماش، المغرب، ومصلح النجار وعماد الخطيب/ الأردن، وليلى السيد/ سوريا ، ومن الجزائر: الطيب بودربالة، قراءة في كتاب سيمياء العنوان لبسام قطوس، أعمال الملتقى الوطني الثاني، السيمياء والنص الأدبي، قسم الأدب العربي جامعة محمد خيضر بسكرة،15-16إفريل ،2002،وعبد القادر رحيم "العنوان في النص الإبداعي أهميته وأنواعه، جامعة محمد خيضر بسكرة،2014. وبخولة بن الدين، فضلاً عن بعض رسائل الماجستير ،مثل: نجوى عبد السلام بناني/المغرب العربي، وليندة جنادي من الجزائر، جامعة الجيلالي بو نعامة، كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي بإشراف الأستاذ محمد مكاكي، ودراسة سعاد قواند (رسالة ماجستير) بعنوان "تطبيق التفكيكية في النقد العربي المعاصر بسام قطوس أنموذجاً، بإشراف علي بخوش، جامعة محمد خيضر . بسكرة،2016/2015.وعبد السلام الزبيدي، بوخوم/ألمانيا.

[18] مصلح النَّجار، سيمياء العنوان لبسام قطوس: مراجعة علمية، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، الجزائر، العدد الثالث، خريف 2008، ص267- 268.

[19] المرجع نفسه، ص269.

[20] نجوى عبد السلام بناني، محاولات بحثية: قراءة سيمياء العنوان لبسام قطوس،(موقع جامعة أم القرى (http://uqu.edu.sa/dsr).

[21] المرجع نفسه، المكان نفسه.

[22] جمال البيلي، الفائزون بجوائز مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين دورة شوقي ولامارتين، 2006، ص 15.

[23] المرجع نفسه، ص15.

[24] في كتابه هذا يوضح الدكتور "بسام قطوس" ما معناه قدرة القارئ على محاورة النص المكتوب ومفاوضته وكشف أسراره وهو ما أسماه "ما فوق النص وما تحته أو ما وراءه". لأجل ذلك استند الكاتب إلى مرتكزين نقديين مهمين: الأول: تأصيلي تنظيري يركز على مفهوم "تمنع النص" ويستمد معطياته من الفكر النقدي العربي والعالمي، ويتخذ من عبد القاهر الجرجاني (471هـ) مرجعية أولى. والثاني: إجرائي تطبيقي يسعى إلى تطبيق المفهوم النقدي على النص الشعري، ومتجاوزاً القسمة الجائرة للشعر بين قديم وحديث. وفي هذا السياق يستوي برأي الكاتب نص المتنبي ودرويش إبداعاً، ويتقاطع نص الغارض وصلاح عبد الصبور إغواء، ويتماهى نص ديك الجن وأمل دنقل إغراء بحثاً عما يمتع ويلذ... ويصبح المعنى ما هو يشكله الكاتب والقارئ من نص أو سياق يتشكل عبر حوار مثمر بين ثقافة الناس وثقافة القارئ ورؤيتها الفكرية، ويصير المعنى هو ما تشكله الثقافة. إن ما يميز كاتب هذا النص "بسام قطوس" أنه يوجه إلى قارئه رسالة يقول له فيها أنه لا يكفي أن تتعامل مع هذا الكم الهائل من المعرفة الإنسانية والنقدية بإحدى طريقتين: إما الرفض والازدراء، أو التقديس والتبجيل. إذ برأيه لا يمكن للتراث مهما عظم أن يجيب عن كل أسئلتنا، وفي الوقت نفسه، وإن في بعض تراثنا النقدي من الغنى والأصالة الشيء المهم الذي يمكن الباحثين الجادين... ما يواصلون البناء عليه للتقدم نحو رؤية نقدية...). أنظر: تمنع النص متعة التلقي ؛

قراءة ما فوق النص، تأليف بسام قطوس، عن موقع أبجد (https://www.abjjad.com) مقال بعنوان (كيف أقرؤه)

[25] بسام قطوس، عتبة التأويل وعتمة التشكيل، وزارة الثقافة الأردنية، 2011، ص7.

[26] بسام قطوس، إستراتيجيات القراءة التأصيل والإجراء النقدي، ص19.

[27] بسام قطوس، الخروج من الطين التأويل والتأويل المضاعف، جامعة الكويت، لجنة التأليف والتعريب والنشر، 2012، ص5.

[28] المرجع نفسه،ص8.

[29] انظر على سبيل المثال: بول دومان، العمى والبصيرة، ترجمة، سعيد الغانمي، الإمارات، المجمع الثقافي، 1995.

[30] بسام قطوس، عتبة التأويل وعتمة التشكيل،ص13.

[31] بسام قطوس، أفخاخ النص الرحلة إلى المعنى، دار فضاءات،عمان،2014، ص5.

[32] محمد حسن عبد الله، تقرير محكّم كتاب "الخروج من الطين: التأويل والتأويل المضاعف" المجاز للنشر العلمي في مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ورقة رقم3.

[33] بسام قطوس، عتبة التأويل وعتمة التشكيل، ص119.

[34] المرجع نفسه، ص125.

[35] المرجع نفسه، ص7.

[36] زياد أبو لبن، مرجع سابق،ص123، وانظر: بول ريكور، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003.

[37] بسام قطوس، عتبة التأويل وعتمة التشكيل، ص70.

[38] المرجع نفسه، ص71.

[39] المرجع نفسه، ص71.

[40] المرجع نفسه، ص121. وانظر : تمنع النص متعة التلقي، ص42، والماوردي، أدب الدنيا والدين، حققه وعلق عليه محمد فتحي أبو الحسن، الدار المصرية اللبنانية،1988،ص75.

[41] المرجع نفسه، ص122.

[42] المرجع نفسه، ص124.

[43] المرجع نفسه، ص124.

[44] المرجع نفسه، ص124.

[45] المرجع نفسه، ص141.

[46] نبيلة الخطيب، بحث مقدم في حلقة دكتوراه النقد الحديث، جامعة اليرموك، إربد، الأردن ، 2017، ص5.

[47] بتمثّل عن، عتبة التأويل وعتمة التشكيل، ص152.

[48] انظر: أبي القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الرحيم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ط3، د.ت، ص329.

[49] انظر: عبد الرزاق القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات الإلهام، معجم المصطلحات والإشارات الصوفية، تحقيق. سعيد عبد الفتاح، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1995، ص45.

[50] بسام قطوس، عتبة التأويل وعتمة التشكيل، ص155-156.

[51] المرجع نفسه، ص157.

[52] المرجع نفسه، ص157.

مصادر البحث ومراجعه:

المصادر:

1. بسام قطوس، إستراتيجيات القراءة: التأصيل والإجراء النقدي،دار الكندي عمان، 1998.

2. ، أفخاخ النص، الرحلة إلى المعنى، دار فضاءات، عمان، 2014.

3. ـــــ، تمنع النص متعة التلقي قراءة ما فوق النص، إصدارات اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربية2002،أزمنة للنشر والتوزيع، 2002.

4. ـــــ، الخروج من الطين التأويل والتأويل المضاعف، جامعة الكويت، لجنة التأليف والتعريب والنشر،2012.

5. ـــــ، الزمان والمكان في ديوان "أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي" دراسة نقدية، مجلة جامعة اليرموك ،المجلد14، عام 1996،صص47-87).

6. ـــــ، سيمياء العنوان، طبع بدعم وزارة الثقافة الأردنية بمناسبة عمان عاصمة الثقافة العربية، 2002.

7. ـــــ،عتبة التأويل وعتمة التشكيل، وزارة الثقافة الأردنية، 2011.

8. ـــــ، درويش على تخوم الفلسفة :أسئلة الفلسفة في شعر درويش، فضاءات للنشر والتوزيع،عمان،2019.

المراجع :

1. بول دومان، العمى والبصيرة، ترجمة، سعيد الغانمي، الإمارات، المجمع الثقافي، 1995.
2. بول ريكور، نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003م.
3. جمال البيلي، كتاب "الفائزون بجوائز مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين"،دورة شوقي ولامارتين2006،نشرته مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.
4. صفاء حمراس: (رسالة ماجستير)،المنهج التأويلي في القراءات النقدية المعاصرة بسام قطوس أنموذجاً، إشراف هامل لخضر، المركز الجامعي - أحمد زبانة-غليزان، معهد الأدب واللغات، الجزائر،2020.
5. زياد أبو لبن، نقود أدبية (مقالات في النقد والأدب)، دار الخليج للنشر والتوزيع،2014.
6. سعاد قواند، (رسالة ماجستير) "تطبيق التفكيكية في النقد الحديث بسام قطوس أنموذجا، إشراف علي بخوش، جامعة محمد خيضر بسكرة،2015.
7. عبد الرزاق القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات الإلهام، معجم المصطلحات والإشارات الصوفية، تح.سعيد عبد الفتاح، القاهرة،دار الكتب المصرية،1995.
8. غُريب محمد عيد، قراءة في كتاب "تمنُّع النص متعة التلقي قراءة ما فوق النص" لبسام قطوس، المجلة الثقافية الجزائرية، الشابكة،thakafamag.com.
9. عماد الخطيب، هوية العنونة في الشعر السعودي المعاصر، دار الانتشار العربي، بيروت لبنان، 2004.
10. محمد خرماش، اتجاهات النقد الحديث في الأردن، بحث منشور في موقع النقد المعاصر، manahijnaqdia.yoo.7.com.
14. موقع أبجد https://www.abjjad.com/.
11. موقع الشابكة (htt://www.alimizher.com/n/2y).
12. مصلح النَّجار، سيمياء العنوان لبسام قطوس، مراجعة علمية، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، الجزائر، العدد الثالث، خريف، 2008.
13. نجوى عبد السلام بناني، محاولات بحثية: قراءة سيمياء العنوان لبسام قطوس،(موقع جامعة أم القرى http://uqu.edu.sa/dsr).